من الطارق

الفصل الأول

رمضان كريم



كثيرًا ما يهنئ الناس بعضهم في رمضان فيرددون هذه الكلمة دون أن يدركوا معناها، ودليل كرمه اليوم هذه الهدايا الغاليات التي اصطحبها معه أثناء زيارته لكل بيت، ليكون البادئ بالإحسان والمتفضّل بالإنعام دون سابق فضل منا أو معروف، بل في كثير من الأحيان ولا مجرد عرفان، ألا ما أشد ظلم بني الإنسان لأشرف ضيوفه اليوم: رمضان!!

صدَق نبيك!!

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! مُرني بعمل. قال: **"عليك بالصوم فإنه لا عدل له"**. قلت: يا رسول الله.. مُرني بعمل. قال: **"عليك بالصوم فإنه لا عدل له"** (صحيح). فكان أبو أمامة لا يُرى في بيته الدخان بالنهار، فإذا رئي الدخان بالنهار عرفوا أن ضيفًا نزل بهم مما كان يصوم هو وأهله.

استقل أبو إمامة الصوم وظنه عملاً عاديًا لذا راجع رسول الله في قوله مرتين، إلا أن رسول الله ﷺ كرر عليه نفس الجواب تأكيدًا وتعليمًا وتربيةً وتنبيهًا إلى ما في الصيام من خير وبركات وأجر ودرجات.

سجدة شكر

ما أكثر الهدايا التي اصطحبها رمضان معه اليوم حين جاءنا زائرًا وما أغلاها، وما سال المداد على هذه الصفحات إلا تذكيرًا بهذه الهدايا لتظل محفورة في الذهن نابضة في القلب بادية على الجوارح، تسعى في شكرها برًا، وتعمل على رده الجميل علانيةً وسرًا، ومن الشكر الذي يمكن أن تقدمه الآن: سجدةُ شكر. قال النووي في كتاب الأذكار: "اعلم أنه يستحب لمن تجددت له نعمة ظاهرة، أو اندفعت عنه نقمة ظاهرة أن يسجد شكرًا لله تعالى أو يثني عليه بما هو أهله".

والآن .. قبل إكمال القراءة، ضع الكتاب جانبًا واسجد سجود شكر على هذه النعمة الجليلة: رمضان.

....

....

....

هل سجدت؟! لا تقصّر فيما أمرتك به، فما تركت هذه الأسطر الثلاثة السابقة فارغة إلا لتنفق وقت قراءتها في سجدة شكرك، وما أردت بهذه السجـدة إلا أن يـرزقك الله المزيـد بأن يشرح صدرك ويهدي قلبك وييسر لك سبل العمل بما تقرأ ..

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم: ٧

والآن إلى عظيم الفضل وواسع الجود، وإلى أول هدية:

١- الثواب المنهمر من أول ليلة:

قال ﷺ: "**إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفِّدت الشياطين ومردة الجن، وغلّقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتّحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادي منـاد كل ليلة: يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر**". (حسن)

وبعد الاطلاع على الحديث السابق يحق لقلبك أن يمتلئ فرحًا ويطير طربًا لأنه وجد ضالته في حديث يحوي هدايا عديدة مجموعة في جعبة واحدة:

أ. صفدت الشياطين ومردة الجن:

والتصفيد في اللغة: هو شدّ الأصفاد وهي القيود والأغلال في أيدي المسجونين وأرجلهم، لذا جاء في رواية مسلم: "**وسلسلت الشياطين**"، وهي التي كانت تسرح عليك طوال العام تؤذيك وتغويك، فأعانك الله عليها اليوم فقهر مردتها وسلسل سادتها، ليخمد في الصدر وسواسها، ويخنس في القلب إغواؤها، فمن كان اليوم أسير شهوة ملكته منذ سنين، أو صريع فتاة أركعته كعبد ذليل، أو أدمن أكل الرشوة والربا وأموال اليتامى والمساكين،

وأيما امرأة كشفت زينتها وأبدت مفاتنها للناظرين.. إلى كل هؤلاء نقول:

أبشروا.. فعين الله تصنعكم، والأبالسة في أصفادها ترمقكم، ونفوسكم إلى الخير وثابة، وعن الشر هيابة، ولم يبق إلا أن تعالجوا خطرات نفوسكم ووساوس قلوبكم، فمن أصر منكم على ذنبه بعد اليوم، فإنما هو انحراف داخلي لا ينتظر شيطانا يغويه حتى يكون هو المبادر إلى الشر ليقع فيه.

القرطبي شارح مبين

قال القرطبي: "فإن قيل: كيف نرى الشرور والمعاصي واقعة في رمضان، فلو صفدت الشياطين ما وقع ذلك؟

فالجواب: أنها إنما تُغلُّ عن الصائمين الصوم الذي حوفظ على شروطه وروعيت آدابه، أو أن المراد أن المصفد هم بعض الشياطين وهم المردة لا كل الشياطين، أو المقصود هو تقليل الشرور فيه وهذا أمر محسوس، فإن وقوعها فيه أقل من غيره، لذلك لا يلزم من تصفيد جميعهم أن لا يقع شر ولا معصية..".

المقاطعة!!

ولئن صفّد الله شياطين الجن، فإن شياطين الإنس يتكاثرون في رمضان وينشطون فيه دون غيره!! حتى إنهم ليقومون بدور إبليس على أكمل وجه، ويحتلون مكانه، ويملئون الفراغ الذي تركه، ويستعيرون صوته البغيض ويهتفون به في أذن كل مؤمن أول الشهر: أمامك شهر طويل فارقد.

ونظرة واحدة إلى أكثر ما يُعرض في الفضائيات في هذا الشهر تبرهن لك على ذلك، ففي رمضان يكثر الرقص والتثني، ويزداد العري والتغني، ويتهجّد الغافلون على أنغام الموسيقى، ويتعبّدون في محاريب اللهو، ويتآخون مع الشياطين، ويلتمسون التوفيق من الأبالسة، والنجاة من الهالكين، والرضا من المغضوب عليهم، والهداية من الضالين، ونظرة الوصال من أهل النار.

وفي الوقت الذي نطالب فيه الأمة بالنهوض وملاحقة العصر وزيادة الإنتاج ونبذ السلبية، تسير هذه الفئة في الاتجاه المعاكس، وتصر على المضي قدمًا في جريمة قتل متعمدة تستهدف أخلاق الأمة بالتسيب، وصلابتها بالتميع، ورجولتها بالتأنيث، وحصانتها بالانهيار، وما نشر هذا الفن المزعوم في هذا الوقت المبارك من العام إلا نشر نعي أمة يُراد لها أن تلبس الكفن بعدما رماها أعداؤها بالوهن، ولما كان هذا الوباء مستفحلا وقلّ أن يسلم منه أحد في رمضان وفي غير رمضان كان على طالب النجاة اليوم أن يعلن في صراحة وحزم: **حملة المقاطعة**.

ب. وغلِّقت أبواب النار فلم يُفتح منها باب:

لأن نوازع الشر مدبرة، ورسل الشهوات مطرودة، وتجارة الشيطان بائرة، وهو يوسوس اليوم ولا يجد من يُصغي إليه، ويغوي ليجد الرد صداه في الأرجاء، فلو كُشف عنك الحجاب اليوم فاطّلعت على أبواب النار لوجدت حولها صحراء شاسعة لا يقف عندها أحد، ولوجدت الزحام كله عند أبواب الجنة الثمانية.

ج. وفتِّحت أبواب الجنة فلم يُغلق منها باب:

ها هي الجنة تزيّنت للناظرين.. فتّحت أبوابها .. ففاح عبيرها.. وحان قطافها.. دعت كل طائع وكل عاص، بل وكل فاجر وباغ.. لسان الحال: أقبل وإن تتابعت الذنوب.. أسرع وإن أثقلت الخطايا.. بادر وإن أرهقت الشهوات.. انهض وإن غلبت الملذات.. ابذل. فالبخيل كل البخل اليوم من بخل على نفسه بالجنة.

أبواب التوبة مفتوحة كي تقبلك.. أسباب المغفرة مُيسّرة كي يُغفر لك، وإذا كان العام كله جزرًا فهذا أوان المد، بل ما سمّي رمضان بهذا الاسم إلا لأن الذنوب تمرض فيه أي تحترق، ووالله ما فتح الله لك أبواب الجنة وهو يريد أن يحرمك منها، وما أغلق أبواب النار دونك وهو يريد أن يعذّبك فيها، وما صفّد الشياطين إلا لتُقبل عليه.. فانظر إليه كيف يعاملك وكيف تعامله!! كيف يطلبك وأنت تهرب منه!! كيف يدعوك إلى نجاتك وتتوانى!!

أخي! لو علمت بتزين الجنـة اليـوم لقدومك، ولو اطلعت على مقعدك هناك في الفردوس الأعلى، ولو سمعت الملائكة ينادونك: أهلاً وسهلاً، والحور تغنينك من قصائد الحب وأغاني الشوق ما هو أغلى: إذن لمت من شدة الفرح ولكنك أصم!!

أخي! ليس أحد مهما تكن حاله إلا وبينه وبين رمضان اليوم صلات وعلاقات، فالطائع يزداد قربًا، والعاصي يرتاح قلبًا، والغافل من ذنبه يصحو، والظالم نار ظلمه تخبو، وقد يسبق العصاةُ الطائعين إذا تابوا وصدقوا، لأن الصدق اليوم يدرك السّبق بل قد يسبقه.

أخي! أجب منادي الإيمان يناديك من على جبل رمضان لتسمع الصدى في وادي الرّضوان:

يا طويل الغياب! أين شوق اللقاء؟!
يا رفيق الشقاء! حان وقت الهناء!!
الغنيمة الغنيمة في هذه الأيام الكريمة،
فما عنها عوض ولا لها قيمة، من لم يربح الآن فمتى؟!
ومن لم ينل الرضا ساعة رضا مولاه فأنّى له الفلاح؟!

سرُّ مفعول الصوم

يشاركنا في الكشف عن هذا السر العالم الرباني ابن قيّم الجوزية فيُدلي إلينا بلذيذ عباراته ورائع استنتاجاته في إحدى فوائده ويقول:

"خُلق بدن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء، وقُرن بينهما، فإذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه في الخدمة، وجدت روحه خفة وراحة، فتاقت إلى الموضع الذي خُلقت منه، واشتاقت إلى عالمها العلوي، وإذا أشبعه ونعّمه ونومه واشتغل بخدمته وراحته، أخلد البدن إلى الموضع الذي خُلق منه، فانجذبت الروح معه، فصارت في السجن، فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خُلقت منه كما يستغيث المعذّب".

والآن مع الموجة المباركة التي قذفك بها بحر رمضان ليغمرك بما هو أغلى من اللؤلؤ والمرجان، واسم هذه الموجة:

٢- البشارة الخماسية:

روى البخاري أن النبي ﷺ قال: "**يقول الله تعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي، وأنا أجزي به، والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم! إني صائم! والذي نفس محمد بيده .. لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه**" (صحيح). ويحوي هذا الحديث وحده خمس هدايا قيِّمة بين ثناياه:

الهدية الأولى: فإنه لي

مع أن الأعمال كلها لله وهو الذي يجزي بها إلا أنه خصَّ الصيام هنا بالذكر، والسبب كما يقول القرطبي: "لما كانت الأعمال يدخلها الرياء، والصوم لا يطلع عليه إلا الله أضافه الله إلى نفسه".

فالصائم يكون وحده في المكان الخالي متمكنًا من تناول الطعام والشراب لكنه لا يفعل، خوفًا من عقاب الله وطمعًا في ثوابه، لذا يشكر الله صنيعه، ويختص صيامه لنفسه من بين سائر الأعمال.

ودرس آخر مستفاد من قوله: "**فإنه لي**" وهو أنه لا يعلم أحد حقيقة صومك إلا الله، وكم من ممتنع عن الأكل والشرب أمام الناس غير أنه عند الله غير صائم.

الهدية الثانية: وأنا أجزي به

أي: أتولى إسداء ثوابه بنفسي تعظيمًا لجزائه. قال المناوي: "**وأنا أجزي به**": إشارة إلى عظَم الجزاء وكثرة الثواب، لأن الكريم إذا أخبر بأنه يُعطي العطاء بلا واسطة اقتضى سرعة العطاء وشرفه".

ومعنى آخر لقوله: **"وأنا أجزي به"**: أي أنفرد بمعرفة مقدار ثوابه ومضاعفة حسناته. قال القرطبي: "معناه أن الأعمال قد كُشفت مقادير ثوابها للناس وأنها تُضاعف من عشرة إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، إلا الصوم فإن الله يثيب عليه بلا حد ولا عدد"، ويشهد لقول القرطبي رواية مسلم: **"كل عمل ابن آدم له، يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به"** (صحيح).

وهذا مصداق قول ربنا:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الزمر: ١٠

والصابرون هم الصائمون في أكثر الأقوال.

واسمع إلى البشرى الرائعة التي تؤكِّد نفس المعنى والتي جاءت على لسان عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - في قوله:

"أن رسول الله ﷺ بعث أبا موسى على سرية في البحر، فبينما هم كذلك، قد رفعوا الشراع في ليلة مظلمة، إذا هاتف فوقهم يهتف: يا أهل السفينة! قفوا أخبركم بقضاء قضاه الله على نفسه. فقال أبو موسى: أخبرنا إن كنت مخبراً. قال: إن الله تبارك وتعالى قضى على نفسه أنه من أعطش نفسه له في يوم صائف سقاه الله يوم العطش". (حسن)

ولأن أبا موسى رجل أفعال لا يكتفي بالأقوال، ولأنه يريد أن يكون الحديث الذي رواه حجة له لا عليه: كان يتوخَّى اليوم الشديد الحر الذي يكاد الإنسان ينسلخ فيه حرًا فيصومه!!

■ الهدية الثالثة: الصوم جُنّة

أي: ترس يدفع المعاصي عن الصائم في الدنيا، ويدفع النار عنه يوم القيامة، وفي الترمذي: **"والصوم جنة من النار"** (صحيح).

وذلك أن الشيطان يجري في عروق ابن آدم مجرى الدم، فإذا صام المرء ضاقت عروقه، فتضيق مسالك الشيطان وقلّت وساوسه، وبهذا يقبل الناس على الطاعات، فيكون الصوم لهم جنّة.

قال ابن العربي: إنما كان الصوم جنة من النار لأنه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بالشهوات، فإذا كفّ نفسه عن الشهوات في الدنيا كان ذلك سترًا له من النار في الآخرة، ولذا أشار ابن عبد البر إلى أفضلية الصيام على غيره من العبادات فقال: "حسبك بكون الصيام جُنّة من النار فضلا".

حقيقة التقوى

التقوى هي أن يجعل العبد بينه وبين غضب الله وقاية وحجابًا: وذلك بلزوم طاعته واجتناب معاصيه، ومراد التقوى وهدفها النهائي: وقاية العبد وحمايته من النار التي لابد لكل واحد منا أن يردها حين يعبر فوق الصراط، لذا أوصى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً في وصية جامعة فقال: "أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لابد لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، وهو يملك الدنيا والآخرة".

ومن آثارها الإيمانية: حساسية في الضمير، وخشية دائمة، وحذرٌ لا ينتهي، وتوقٍ لأشواك الطريق: طريقه الحياة الذي تتناثر فيه أشواكُ الرغبات والشهوات، وأشواكُ المخاوفه والهواجس، وأشواكُ الفتنه والموبقات.

والصيام من أهم الطرق المؤدية إلى التقوى. قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة: ١٨٣

ومن معاني ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾: تتقون المعاصي والذنوب، لأن امتلاء البطن بالطعام والشراب رأس البواعث على الفحشاء والمنكر، ومعلوم أن الجائع العطشان لا يجد في نفسه من أثر الشهوات ما يجده الممتلئ، لذا قال إبراهيم بن أدهم: "الجوع يُرقّ القلب"، وجعل محمد بن الفضل البلخي تربية البطن أصل الزهد حين قال: "الدنيا بطنك!! فبقدر زهدك في بطنك زهدك في الدنيا".

ومن معاني ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ : قول مصطفى صادق الرافعي أن معنى التقوى في الآية هو الاتقاء، وذلك أن الصائم قد صام ليتقي شر حيوانيته وحواسه، فقوله: إني صائم! إني صائم! معناه: إني غائب عن الفحش والجهل والشر، إني في نفسي لا في حيوانيتي.

ومن معاني ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ : تتقون الجهل بقدر نعمة الله عليكم، وذلك أن الناس في خضم النعم المغدقة عليهم ينسون نعمتي الطعام والشراب، بل ينسون الجوع والعطش ويغفلون عن شدتهما، وبالتالي يسقط شكر النعمة من حساباتهم، ففرض الله عليهم الصوم مدة يسيرة من الزمن ليتذكروا نعمة الله عليهم، ومن كرمه أن جعل من ذلك عبادة يؤجرون عليها، حتى إذا ردت إليهم هذه النعم عند الإفطار شكروها وأدوا حقّها، وانظر على سبيل المثال إلى ما كان يفعل الإمام أحمد بن حنبل عند كل وضوء ليُذكّر نفسه بإحدى نعم الله عليه فلا يضل ولا ينسى.

قال صالح بن أحمد بن حنبل: "كان أبي رحمه الله لا يدعُ أحداً يستقي له الماء للوضوء إلا هو، فكان إذا أخرج الدلو ممتلئًا قال: الحمد لله!! قلت: يا أبته.. أي شيء.. ما الفائدة؟! قال: يا بني.. أما سمعت الله عز وجل يقول:

﴿ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ الملك: ٣٠

حين تنتحر الهموم!!

قال ابن الجوزي:

"ضاق بي أمر أوجب غمًا لازمًا دائمًا، وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه، فما رأيت طريقًا للخلاص، فعرضت لي هذه الآية:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ الطلاق: ٢

فعلمتُ أن التقوى سببٌ للمخرج من كل غم، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدتُ المخرج".

فليتنافس المتنافسون

قال الإمام ابن قيّم الجوزية:

"التقوى ثلاث مراتب: أولها: حميّة القلب والجوارح عن الآثام والمحرّمات، والثانية: حميّتها عن المكروهات، والثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني، فالأولى تُعطي العبد حياته، والثانية تفيد صحته وقوته، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته".

■ الهدية الرابعة: أطيب عند الله من ريح المسك

وهو على سبعة أقوال كل واحد أحلى من الآخر فتذوّق معي هذه الحلاوة حتى تشتاق لعبادة الصوم وتداوم عليها:

الأول: أنه أطيب عند الله من ريح المسك عندكم.

الثاني: أن الله يجزي الصائم بذلك في الآخرة، فتكون ريحه أطيب من ريح المسك .. كما يأتي الشهيد يوم القيامة وريح جرحه تفوح مسكًا.

الثالث: أن الصيام سرٌ بين العبد وربه في الدنيا، لذا أظهره الله في الآخرة علانية للخلق، ليشتهر الصائمون في الآخرة جزاء ما أخفوا صالح عملهم في الدنيا.

الرابع: أن الصائم ينال من الثواب في الآخرة ما هو أغلى من المسك في دنياكم.

الخامس: أن فضل الصيام بين العبادات كفضل المسك بين الأشياء.

السادس: أن الله تعالى يثيب الصائم على خلوف فمه أكثر مما يثيبه على استعماله المسك، حيث أثاب الله على استخدام المسك في الجُمع والأعياد.

السابع: أن الطيب هنا كناية عن القبول والرضا.

وعلى الإجمال فهذه العبارة من أعظم الثناء على الصائم والمدح

لفعله.

الهدية الخامسة: وللصائم فرحتان يفرحهما:

أ. **إذا أفطر فرح بفطره:** معناه فرح بزوال جوعه وعطشه وهذا فرح بشري ، لكن هناك من تسامت روحه وعلت همته فلم يعد فرحه بفطره فحسب، بل فرحه الأكبر فرح سماوي: بشبع روحه لا بشبع بطنه، وبتمام صومه وختام عبادته وتخفيف ربه عليه ومعونته له بهذا الفطر على بره وذكره.

ب. **وإذا لقي ربه فرح بصومه:** أي بنيل الثواب وعلو المنزلة، وقبل أن تنفد جرعة الفرح المتولدة في قلبك من أثر الهدية السابقة، عاجلك رمضان بهدية أغلى وجائزة أحلى ألا وهي:

٣- جائزة كل ليلة:

قال ﷺ : **"إن لله تعالى عتقاء في كل يوم وليلة .. لكل عبد منهم دعوة مستجابة".** (صحيح)

فهل يا ترى أعتقهم دون عمل عملوه أو جهد بذلوه؟! والجواب: كلا والله، فافهم ما وراء الحديث من باعث حثيث وحثّ لطيف على أن تغتنم الفرصة قبل أن تضيع، وتبذل قصارى جهدك كل ليلة قبل أن يطلع عليك الصبح وأنت من المحرومين، وتسأل نفسك كل ليلة: هل أُعتقتُ الليلة أم ليس بعد؟! وهل نجوتُ أم لازلت في الهالكين؟!

واستمرارًا لعادة الكرم وخصلة الجود التي اشتهر بها رمضان عن غيره من الأشهر بعث إليك بالهدية الرابعة وعليها بطاقة مُوشّاة بالذهب مكتوبٌ عليها:

٤- موسم انزال الكتب:

قال ﷺ : **"أُنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأُنزلت التوراة لست مضت من رمضان، وأُنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأُنزل الزبور لثمان عشرة خلت من**

رمضان، وأُنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان". (حسن)

والمراد من إنـزال القرآن في تلك الليلة إنزاله إلى اللوح المحفوظ، فإنه نزل عليه فيها جملة، ثم أُنزل منه منجماً في نيف وعشرين سنة، وسرّه كما قال الفخر الرازي أنه لو نزل جملة واحدة لضلت فيه الأفهام وتاهت فيه الأوهام.

سبحان من مدح شهر الصيام من بين الشهور، وأحبه وأدناه فاختاره من بينها لإنزال كتابه المبرور، بل اختصه كذلك بأنه الشهر الذي أنزل فيه كل الكتب الإلهية على أنبيائه ورسله، ليكون بمثابة عيد نحتفل فيه بهذه المناسبة الجليلة: أول اتصال الأرض بالسماء، وأول استقبال لبركات الوحي الإلهي، وأول هداية تتنزل على العالم البشري، فلا عجب إذن أن نحتفل اليوم بميلاد العالم السعيد ومطلع النور الجديد.

ولأن الهدايا اليوم لا تُقدّر بثمن، فقد استحقّت أن يتم الإعلان عنها على لسان أعظم الخلق أجمعين وأقربهم إلى مرضاة رب العالمين حيث أعلن الرسول ﷺ بنفسه عن:

٥- عمرة آخرها عيد:

قال ﷺ : **"عمرة في رمضان كحجة معي".** (صحيح)

ومعنى قوله: **"كحجة معي"**: في ثوابها وجزائها، **"كحجة معي"**: في روحانيتها ومشاعرها حين تجد لها نفس المذاق الذي وجده من حج مع رسول الله، **"كحجة معي"**: في بركتها وأثرها في إحياء القلوب وتهذيب النفوس.

وما أبلغ هذا الأسلوب في بثّه الشوق في قلب كل مؤمن ليخوض التجربة بنفسه، ويذوق اللذة الغامرة والحلاوة التي لا توصف بالسفر إلى هناك.

ولأن من أغلى هدايا اليوم فتح صفحة بيضاء وطي صحائف مسودة، فيحق لك أن تهشّ وتبش لأنك استلمت في يدك هدية:

٦- العهد الجديد:

قال ﷺ : **"من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفرله ما تقدم من ذنبه"**. (صحيح)

ومعنى "**إيمانًا**": تصديقًا بفرضية الصوم وعظمة ثوابه ووافر حسناته، "**واحتسابًا**" أي طالبًا الأجر من الله يقينا بثوابه، وكيف لا يثق في من لا يظلم مثقال ذرة..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

التوبة: ١٢٠

ومن الاحتساب أن تفعل ذلك طيبة بذلك نفسك غير مستثقل لصيامه ولا مستطيل لأيامه، فيا باغي الخير أقبل! أقبل! ويا باغي الشر أقصر! أقصر! وا حرّ قلبي على من دعي إلى فتح صفحة جديدة مع مولاه فأعرض!! ونودي أن جاءت الفرصة السانحة للمغفرة بأيسر السبل فأدبر!!

صوم شهر يمحو ذنوب العام .. تعب أيام يلغي سيئات العمر..
صحو ساعة يورث سعادة الأبد ..
ألا ما أغلى الهدية ثم أنتم معرضون!!

ومن الهدايا الباهرة التي تُشعُّ ثوابًا وتقطر أجرًا والتي لم تكن تتوقعها أو تحلم بها يومًا من الأيام:

٧- منافسة شديدة والفوز عليه:

لئن بكى الصديق فرحًا باختيار الحبيب له لصحبته في الهجرة، فحريٌّ بنا أن تجري دموعنا فرحًا باختيار هذا الزائر الكريم لصحبتنا هذه الأيام.

عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أن رجلين من بَلِيّ قدما على رسول الله ﷺ وكان إسلامهما جميعًا، فكان أحدهما أشد اجتهادًا من

الآخر، فغزا المجتهد منهما فاستشهد، ثم مكث الآخر بعده سنة، ثم توفي، قال طلحة: فرأيت في المنام بينما أنا عند باب الجنة إذا أنا بهما، فخرج خارج من الجنة فأذن للذي توفي الآخر منهما، ثم خرج فأذن للذي استشهد، ثم رجع إليّ فقال: ارجع فإنك لم يأذن لك بعد، فأصبح طلحة يُحدث به الناس فعجبوا لذلك، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وحدثوه الحديث، فقال: **"من أي ذلك تعجبون؟"** فقالوا: يا رسول الله .. هذا كان أشد الرجلين اجتهاداً ثم استشهد، ودخل هذا الآخر الجنة قبله، فقال رسول الله ﷺ: **"أليس قد مكث هذا بعده سنة؟"** قالوا: بلى. قال: **"وأدرك رمضان فصام وصلى كذا وكذا من سجدة في السنة؟"** قالوا: بلى. قال رسول الله ﷺ : **"فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض"**. (صحيح)

ومن الهدايا المبهجة المُرسلة إليك عبر رمضان: أخبار نجاحك في امتحان القبول في مدرسة الثلاثين يوماً والمسماة:

٨- مدرسة الصبر:

شهر رمضان هو شهر الصبر، وأصل الصبر الحبس، وهو ثلاثة أنواع: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على أقدار الله المؤلمة، والثلاثة تجتمع في الصوم، فإن فيه صبراً على طاعة الله من صلاة وقرآن ومناجاة، وصبراً عما حرّم الله من الشهوات، وصبراً على ما يجد الصائم من ألم الجوع والعطش.

لذا كان رمضان جديراً بأن يُسمّى شهر الصبر لأن الصائم يصبر فيه ثلاثين يوماً على ذلك، فيكون بمثابة دورة تدريبية تعينه في مستقبله على أوامر الله بفعلها، وعلى نواهيه بتركها، وذلك سائر أيام حياته، فاغرس بذور الصبر هذا الشهر لتجني ثمرتها طوال العام.

ومن أعظم الصبر اليوم الصبر على محاولات الجهل عليك واستفزازك لتخرج من طاعتك ويفسد صومك، وفي الحديث: **"وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم مرتين"**. (صحيح)

قال الزركشي: "المراد بقوله **"فليقل، إني صائم مرتين"** يقوله مرة بقلبه ومرة بلسانه، فيستفيد بقوله بقلبه كفّ لسانه عن خصمه، وبقوله بلسانه كفّ خصمه عنه".

لسان حالك: ليس عندي وقت للخصام، وما عنــدي زمن لسيء الكلام، بل كل وقتي ذكر، وجميع كلماتي تسبيح.

والآن مع الهدية التي سيستمر أثرها معك بعد ذهاب الضيف، وستبقى ثمرتها بعد أن يغادر:

٩- بناء أسوار المراقبة:

أخي الصائم! اسأل نفسك: لماذا تحرص عند وضوئك وأثناء المضمضة على أن لا تتسلل إلى حلقك قطرة ماء واحدة؟ لم كل هذا الحرص مع أنه لا يطّلع عليك أحد، ولن يعلم بك أحد حتى لو تجرّعت جرعة ماء فكيف بقطرة؟

وأنت يا أختاه! تقفين في مطبخك من بعد صلاة الظهر إلى غروب الشمس أمام أشهى المأكولات وأبرد المشروبات، بل ربما ذقتها بطرف لسانك ثم لفظتيها بحركة سريعة كي لا تدخل جوفك مع أنك وحدك، فأي تهذيب هذا الذي أحدثه الصوم في النفوس؟ وأي تدريب عملي على استشعار المراقبة في كل الأوقات وعلى جميع الأحوال؟!

إنها بذرة إخلاص أهداها لنا رمضان فنمت واستوت على سوقها: مما جعل رب العزة سبحانه يفرح ويفاخر بعبده لأنه **"يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي"**. (صحيح)

وهذه المراقبة لا تصل إليها إلا من خلال تجريب وتدريب في أحوال مختلفة وأوقات شتى، فهي أشبه ما تكون بعضلات الجسم في أن نموها في استخدامها والاعتماد عليها، ولهذا زار رمضان.

وانظر إلى الذين يأتون الفضائل ويقومون بالواجبات من خلال قسر الأبوين أو تحت وطأة القانون أو ضغط المجتمع، فإذا خلوا بأنفسهم أو ضعف ذلك الضغط أو تلاشى أتوا من الرذائل

والمعاصي ما يستطيعون.

والآن مع هدية تضاعف البركة في الدنيا والدين مع ما يواجهها من إعراض الغافلين وإهمال الكثيرين الذين لا يدركون أنها:

١٠- مستودع البركة:

السحور عبادة جليلة يغفل عنها الكثيرون وينامون عنها، مع أنها منبع الخير وسر النماء. قال رسول الله ﷺ : **"عليكم بهذا السحور؛ فإنه هو الغداء المبارك"** (صحيح). وحذرنا النبي ﷺ من تضييعه فقال: **"إن السحور بركة أعطاكموها الله فلا تدعوها"**. (صحيح)

والبركة هي الزيادة والنماء وذلك بنزول الخير الإلهي في الشيء وثبوته فيه. فالبركة في المال زيادته وكثرته، وفي الدار سعتها وسكينتها، وفي الطعام وفرته ولذته، وفي الأولاد كثرتهم وحسن أخلاقهم، وفي الأسرة انسجامها وتفاهمها، وفي الوقت اتساعه وقضاء الحوائج فيه، وفي الصحة سلامتها وتمامها، وفي العمر طوله وحسن العمل فيه، وفي العلم الإحاطة والمعرفة، فالبركة إذن جماع لكل الخير وطريق موصل لكثرة النعم، فلا غرابة بعد ذلك أن نجد في طلب هذه البركة اليوم في شهر قال النبي ﷺ فيه: **"رمضان شهر مبارك"** (صحيح). وفيه ليلة وصفها ربنا بقوله:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ الدخان:٣

بل وعمت فيه البركة كل شيء لتشمل حتى الطعام.

معنى البركة في السحور

- **من البركة** فيه أنه يُعطي القوة على الصيام وغيره من الأعمال الصالحة أثناء النهار: فيجد المتسحر في نفسه نشاطًا يبعثه على أداء الفرائض والنوافل في همة وعزم.
- **ومن البركة** فيه إدراك وقت السَّحر وهو وقت التنزل الإلهي

والاستغفار المبارك.

• **ومن البركة** فيه أنه أضمن لترديد أذان الفجر مع المؤذن وإدراك الصلاة في وقتها مع الجماعة مع ما في ذلك من الفضل.

• **ومن البركة** فيه أن الصائم إذا تسحّر لا يشق عليه تكرار الصوم بل يشتاق إليه، خلافًا لمن لا يتسحّر: فإنه يجد مشقة تثقّل عليه العودة للصيام.

• **ومن البركة** فيه أنه يكفي فيه القليل ولو كان جرعة ماء. قال ﷺ: **"تسحّروا ولو بالمـاء"** (صحيح). وإن كان **"نعم السحور التمر"** (صحيح). فإن فعلتم ذلك وواظبتم عليه استحققتم صلاة الله عليكم وهي الرحمة، وصلاة ملائكته عليكم وهي دعاؤهم لكم بالرحمة، فكيف بعدها لا تُرحمون؟!

قال ﷺ : **"إن الله تعالى وملائكته يصلون على المتسحِّرين"** (حسن). فإذا كان الله وملائكته يصلون على المتسحرين، والسحور ما هو إلا إعداد للصيام فما ظنك بالصيام نفسه؟!

أما وقت السحور فيدلنا عليه زيد بن ثابت الذي حدّث أنهم تسحّروا مع النبي ﷺ ثم قاموا إلى الصلاة، فسأله سائل: كم بينهما يعني الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين أو ستين يعني آية (صحيح).

إخواني.. كلما غلت الهدية.. عظُمت الفجيعة بفقدها، وزادت الحسرة على فواتها، خاصة إذا كانت من نوع الهدية التالية:

١١- رواء من الريان:

قال ﷺ : **"إن في الجنة بابًا يُقال له: الريّان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم يُقال: أين الصائمون؟ فيقومون فيدخلون منه، فإذا دخلوا أُغلق فلم يدخل منه أحد"**. (صحيح)

ولأن الصائم كابد الجـوع والعطش استحق أن يدخل من باب الريان حيث ينمحي الجوع والعطش، لأن الجزاء من جنس العمل،

ومجرّد ذكر اسم هذا الباب يبعث في القلب الراحـة، فكيف إذا دخل منه العبد إلى نعيم الجنة الأبدي ليـذهب معنى التعب إلى مجاهل النسيان إلى غير رجعة، واكتفى الحديث بذكر الري عن الشبع لدلالته عليه، أو لأن العطش أشق على الصائم من الجوع، وأكّد النبي ﷺ تفردهم بالدخول من هذا الباب ونيلهم لهذا الشرف دون غيرهم بقوله: **"لا يدخل منه أحد غيرهم"**.

ومن مفاجآت رمضان اليوم أن الله حرّرك فيه من كل القيود ووضع عنك إصرك والأغلال التي كانت عليك، لذا استحق أول يوم في هذا الشهر أن يُطلق عليه اسم:

١٢- يوم الاستقلال:

في غمرة الأحداث وكثرة مشاغل الحياة قد يفقد الإنسان الذاكرة، فينسى الغاية التي خلقه الله من أجلها، وبدلا من أن تكون نعم الله عليه من طعام وشراب دالة على الله تصبح صارفة عنه، وتُطلب لذاتها، وتُعبد من دونه، ويصبح العبد ويمسي ساجداً للدينار راكعًا للدرهم، ويجتذبه الشرف، وتستهويه الرئاسة، ويستعبده من يمدحه ولو بالباطل، ويُعادي من ينصحه ولو بالحق، فيأتي رمضان ليعيد الأمور إلى نصابها، ويرد للنعمة دورها المنشود.

ومما يأسر الإنسان أيضًا عاداته، ومعلوم أن للعادات سلطانًا على النفوس وهيمنة على القلوب، وقد تستقر في النفس البشرية حتى تصبح طبيعة من طبائعها، لا يستطيع المرء التخلص منها ولا يقدر على مفارقتها، لكن رمضان مستشفى زماني فريد يجد كل مريض فيه دواءه، فطول مدة التغيير فيه والتي تستمر ثلاثين يومًا، وشمول هذا التغيير ليشمل أنشطة الحياة المتنوعة من مواعيد النوم والاستيقاظ مرورًا بأوقات الطعام والشراب إلى طرق شغل الأوقات: يُضاف إلى ذلك التشجيع الذي يحدثه عموم هذا التغيير ليشمل أفراد البيئة المحيطة بالإنسان: كل ذلك يساعد على الخروج من المألوف والفكاك من أسر العادات في

إطار حرب التحرير المعلنة من قبلك لإعلان الاستقلال!!

قال المناوي: "وإنما شُرع الصوم كسرًا لشهوات النفوس وقطعًا لأسباب الاسترقاق والتعبد للأشياء، فإنهم لو داموا على أغراضهم لاستعبدتهم الأشياء، وقطعتهم عن الله، والصوم يقطع أسباب التَّعبد لغيره، ويورث الحرية من الرِّق، لأن المراد من الحرية أن يملك الأشياء ولا تملكه، لأنه خليفة الله في ملكه، فإذا ملكته فقد قلب الحكمة، وصيَّر الفاضل مفضولاً، والأعلى أسفل:

﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

الأعراف: ١٤٠

والهوى إله معبود، والصوم يورث قطع أسباب التعبد لغيره".

ومن هدايا رمضان كذلك تلك اللبنات التي أحضرها معه لبناء صرح مشيد وبناء عتيد في نفس كل مسلم ألا وهو:

١٣- بناء الإرادة:

لاشك أن صوم رمضان يشكّل صقلاً للإرادة النفسية، وقمعًا للشهوات الجسدية، ورياضة شاقة على هجر اللذائذ الحسية، وتربية عملية على تحمله المكروهات من جوع وعطش وحلم وأناة وعفة وعطاء ونطق بالحق وسكوت عن الباطل.

ومن بناء الصوم للإرادة قول الله سبحانه:

﴿ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ١٨٤

في أعقاب ذكر الرخصة للمريض والمسافر بالفطر إشارة إلى أن الأفضل هو الصوم مع المرض والسفر المتحمَّل غير الشاق، لتقوية إرادتك وبناء عزيمتك وتعويدك المعاناة في سبيل الله، وبذلك لا تُتَّخذ الرخص ذريعة للفرار من الواجبات والهروب من الفرائض، بل يكون الصوم صورة من صور الرجولة المستعلنة والإرادة المستعلية.

ومن بناء الصوم للإرادة كذلك كون "**أحب الصيام إلى الله**

صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً" (صحيح). فهو أفضل من صوم الدهر لأنه أشق على النفس بمصادفة مألوفها يوماً ومفارقته يوماً.

قال الإمام الغزالي:

"وسره أن من صام الدهر صار الصوم له عادة فلا يحس وقعه في نفسه بالانكسار، وفي قلبه بالصفاء، وفي شهواته بالضعف، فإن النفس إنما تتأثر بما يرد عليها لا بما تمرّنت عليه، ألا ترى أن الأطباء نهوا عن اعتياد شرب الدواء وقالوا: من تعوده لم ينتفع به إذا مرض، لإلف مزاجه له فلا يتأثر به، وطب القلوب قريب من طب الأبدان".

الفرصة الذهبية

رمضان فرصة ذهبية لمن كان مفرّطاً في صلاته، فلا يصليها مطلقًا، أو يؤخّرها عن وقتها ، أو يتخلّف عن أدائها جماعة في المسجد، ليجد نفسه اليوم منجرفًا مع الجموع المدفوعة بسيل الإيمان ورصيد الفطرة إلى بيوت الله.

رمضان فرصة ذهبية لكل شاب أحب فتاة في الحرام ولكل فتاة كذلك، ليكون فرصة لتغيير المسار، والهروب من غضب الجبار، وتجنب التجرع من نفس الكأس ولو طال الزمان، فإن الزنا دين، وهتك الأعراض صفعة لابد أن تُرد على نفس الوجه يوماً من الأيام.

يا هاتكًا حُـرُم الـرجال وتابعًا … طُرُق الفساد فأنت غير مُكـرَّمِ
من يزن في قـوم بألفي درهـم … في أهله يُزنى بربُـع الدرهـم
إن الزنى ديـنٌ إذا استقرضتـه … كان الوفا من أهل بيتك فاعلمِ

وهي تجربة ابن المعتز الذي رأى في حياته من تجارب ومواقف ما جعله يهدّد في صرامة وحزم: "من يهتك ستر غيره تُكشف عورة بنيه".

وصدق الشاعر المؤمن حين أرشدك إلى العلاج قائلاً:

مـن نالـــه داء الـهـــوى بذنوبـــه
فليـــأت في رمضان بـــاب طبيبـه
فخلوف هذا الصوم يا قوم افهموا
أزكى من المسك الشـذي وطيبـه
أوليس هـذا القـــول قول مليككم
الصوم لي وأنا الذي أجزي بـــــه

رمضان فرصة ذهبية لكل من أوقعه الشيطان فريسةً لذنب أو أسيراً لعادة قبيحة أو خطيئة مرذولة، فيزوره رمضان اليوم ليلقي إليه بحبل النجاة ويدلّيه في بئر الخطيئة لينتشله، ودورك أيها المبتلى: المداومة على ترك المنكرات ما استطعت، والتشبث بالخيرات إلى حين حتى تلمح بصيص النور أعلى البئر، ثم تداوم على ذلك وتستمر، وعندها فحسب ييأس منك الشيطان وليس قبل، هذا إن أردتِ النجاة، وإلا ظللت في غيابت الجب دون أن يلتقطك أحد السيارة، وعندما تموت أخشى أن يتحقق فيك قول القائل: كم من متحسر تحت التراب!!

وهذه المداومة هي المفتاح الذي سبق وأرشدك إليه الحسن البصري ليفتح الله به عليك. قال رحمه الله:

إذا نظر إليك الشيطان فرآك مـداومًا على طاعة الله فبغاك وبغاك فرآك مداوما ملّك ورفضك، وإن كنت مـرة هكذا ومـرة هكذا: تتقدم خطوة وتتأخر خطوتين طمع فيك.

رمضان فرصة ذهبية لمن أصابته نزلة فتور ونوبة كسل بعد أن اعترته فورة نشاط وثورة عمل، فيا من كان له حال مع الله فانقلب .. يا من استزله الشيطان ببعض ما كسب .. يا من نسي ربه وهو يلهث وراء دنياه بحثا عن الذهب: قيام الليل يفتقدك، رياح السحر تبحث عنك، كتاب الله مشتاق، دموعك طال غيبتها.

أخي الغائب! إن كان قد اعتراك ضعفٌ بعد قوة، فاشكُ إلى الله ضعفك، فإن لطفه بالضعيف أكبر.

أخي! أبعد حلو الود والمواصلة تؤثر مُرَّ الهجر والمفاصلة؟! أما آن لك أن تذكر حالك القديم، وتبكي على ما فاتك منه، وتخاف من طول الهجر، وتهرب من هول القطيعة، وتتأهب لعقد الصلح معه قبل أن ينادى فيك بالرحيل، ويطلبك للمساءلة، فتجد نفسك خاشعا من الذل بين يديه.

ومن هداياك اليوم هدية مباركة ادخرها لك رمضان ليفاجئك بها قبل رحيله مباشرة لتكون أحلى هداياه وآخرها، وهي هدية تساوي عمرك كله إن لم تكن أفضل وأغلى فأعدّ قلبك لتلقي مفاجأة:

١٤- ليلة العمر:

يكفي في فضلها قول النبي ﷺ : "**وفيه ليلة هي خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم**". (صحيح)

إن الرتابة الدائمة والسير على وتيرة واحدة في الحياة يبعث على السآمة والملل، لكن الإسلام العظيم أعطى الحياة طعمًا آخر ترمي به خلف ظهرها كل سآمة وملل، ففي الصلوات الخمس كسر لرتابة اليوم، وفي صلاة الجمعة كسر لرتابة الأسبوع، وفي شهر رمضان كسر لرتابة العام، وفي ليلة القدر كسر لرتابة ليالي الشهر، وفي كل محطة من هذه المحطات يجدد الإنسان إيمانه ويعيش حياة جديدة حين يقف على معانٍ يتذوقها لأول مرة: لتعيده إلى الصواب إن كان قد انحرف، وترفع همته إن كان قد وهن أو كسل.

ليلته المُفضّلة!!

والله سبحانه وتعالى هو الذي بيده اختصاص التفاضل، فهو الذي فضّل بعض النبيين على بعض، وفضّل بعض الشهور على بعض، وفضّل بعض الأوقات على بعض، بل وفضل بعض الطعام على بعض..

﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾ الرعد: ٤

ومن ذلك تفضيله لليلــة القدر على سائر الليالي، وقد سُمّيت ليلة القدر بهذا الاسم لخطرها وشرفها على جميع الليــالي، أو كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله:

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ الدخان: ٤

"يُكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر، حتى يكتب الحاج يحج فلان ويحج فلان".

بل أغلى يا إمام!!

قال الإمام الرازي: "واعلم أن من أحياها فكأنما عبد الله تعالى نيّفا وثمانين سنة، ومن أحياها كل سنة فكأنما رُزق أعمارًا كثيرة".

لكن الأمـر أعظم مما قال إمامنـا وأغلى، وتأمّل قوله تعـالى:

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ الدخان: ٤

ولم يقل: كألف شهر، إشارة إلى أنها خيــرية مطلقة ليس للعدد فيها مفهوم، وكلما كان العبد أشــد إخلاصًا لله وأكثر إقبالا عليه كانت مضاعفة ثوابـه أعظم، ألا ما أعظم هذه الليلة! ليلــة من أنــوارها كأنهــا نهار، ليلــة هي أحلى حسنات الدهـر، وأطيب لحظات العمر، نعم وأيم الله! وما أدراك ما ليلة القدر: ليلةٌ تُفتّح فيها الأبواب، ويقرب فيها من تاب، ولا يُرد من طرق الباب، بل يسمع منه الخطاب، ويأتي على الفور الجواب، فيُكتبُ له الليلة ما لا يدركه العقل من الثواب، فماذ أنتم فاعلون؟!

يا من ضاع عمره في لا شيء..
استدرك ما فاتك الليلة فإنها تعدل العمر كله
بين يديك الجواهر والدرر، فلا تُضيعْ عمرك في الطين والمدر

الدرس العظيم هنا: ليست العبرة بطول الأعمار بل بما تحويه من أعمال الأبرار، وليس المهم أن تمتد بك الحياة ولكن المهم أن تملأها بالخير، ورُبّ لحظة واحدة من مجتهد خير من أيام

الحياة كلها من غافل بليد، فاقتنص كل لحظة اليوم ولا تفرّط في رأس مالك فإنه لا يعوّض.

تخصيص بعد تعميم!!

وقد كان النبي ﷺ يتحرى ليلة القدر ويأمر أصحابه بتحريها، لذا كان يوقظ أهله ليالي العشر رجاء أن يدركوها، وبل وحثّ على قيامها بأبلغ العبارات وأعظم الترغيب والتشويق في قوله:

"من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا
غفر له ما تقدم من ذنبه". (صحيح)

مع أنه قال ﷺ في حديث آخر:

"من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا
غفر له ما تقدم من ذنبه". (صحيح)

وقد يُقال إن أحدهما يغني عن الآخر، فليلة القدر ليلة من ليالي رمضان، فلم هذا التخصيص بعد التعميم؟!

إذا عُرف السبب بطل العجب، والسبب يخبرنا به الإمام النووي وهو: "قيام رمضان من غير موافقة ليلة القدر ومعرفتها سبب لغفران الذنوب، وقيام ليلة القدر لمن وافقها وعرفها سبب للغفران وإن لم يقم غيرها".

سر الأسرار!!

ولم يحددها النبي ﷺ بليلة معيّنة بل قال:

"إني أُريت ليلة القدر ثم أنسيتها، فالتمسوها في العشر الأواخر في الوتر". (صحيح)

وقال في موضع آخر:

"ليلة القدر ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين.. إن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى". (حسن)

وقال في موضع ثالث:

"التمسوا ليلة القدر آخر ليلة من رمضان". (صحيح)

بل إن أبي بن كعب رضي الله عنه فيما رواه عنه مسلم يقول: والله إني لأعلم أي ليلة هي: هي الليلة التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، وهي ليلة سبع وعشرين، وكان أبي يحلف على ذلك ويقول: بالآية والعلامة التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ أن الشمس تطلع صبيحتها لا شعاع لها، يعني بذلك قول النبي ﷺ :

"ليلة القدر ليلة سمحة طلقة لا حارة ولا باردة تصبح الشمس صبيحتها ضعيفة حمراء". (صحيح)

والذي يغفل عنه كثير من الناس أنه لا يلزم من تخلف العلامة عدمها، ورب قائم فيها ولم ير من علاماتها شيئًا، وهو أفضل عند الله وأكرم ممن رآها لكنه كسل ونام، ولا أرى أن يستغرق تحديدها منا كثير وقت وطول نقاش في شهر نحن أحوج ما نكون فيه إلى اغتنام كل لحظة، ذلك أن حكمة إخفائها أن من أرادها أحيا ليالي كثيرة طلبًا لموافقتها، فتكثر عبادته ولا يتكل على إصابة الفضل في ليلة واحدة فحسب، بل ينال ثواب ليالٍ كثيرة طلبًا لها، وتأمل قوله ﷺ مبيّنًا حكمة إخفائها في قوله:

"وعسى أن يكون خيرا لكم"

واقرأ معي هذا الحديث:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: **"خرجتُ لأخبركم بليلةِ القدر، فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة".**

(صحيح)

وفي الحديث درس آخر غاية في الأهمية وهو أن:

جدال رمضان علقم

وهذان الرجلان هما عبد الله بن أبي حدرد وكعب بن مالك رضي الله عنهما، وهذا دليل على أن الخصومة مذمومة، وأن الجدال سبب الحرمان، وأن المكان الذي يحضر فيه تُرفع منه البركة، وزاد من فداحة هذه الخصومة وقوعها في المسجد،

وهو محل الذكر لا اللغو، ثم حدوثها في شهر رمضان، ثم رفع الصوت بحضرة رسول الله ﷺ وهو منهي عنه لقوله تعالى:

﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

الحجرات: ٢

ومن هنا أورد الإمام البخاري هذا الحديث تحت عنوان: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

ليلها كنهارها سواء

قال الإمام الشعبي في حق ليلة القدر: ليلها كنهارها، وقال الشافعي: أستحب أن يكون اجتهاده في نهارها كاجتهاده في ليلها.

وهي لفتة ذكية، فاغتنام هذه الليلة لا بد له من إعداد وتجهيز، ويستغرق ذلك أغلب ساعات النهار، حتى إذا ما بدأت الليلة لم يضع منها شيء، فالفضل اليوم لا يقدّر بثمن، وضياع الدقيقة خسارة فادحة، واللحظة الواحدة غالية غالية، ولن يعرف المفرِّط فداحة خسارته إلا يوم القيامة ولات ينفع الندم، فتأسّف على كل ساعة من ساعات هذه الليلة فارغة من ذكر، وابكِ على كل لحظة فيها لا يؤنسك فيها مصحف أو دعاء.

أفضل أعمال الليلة

قال سفيان الثوري: الدعاء في تلك الليلة أحب إليَّ من الصلاة.

ويشرح ابن رجب هذا فيرى أن المقصود من قول سفيان أن صلاة يكثر فيها الدعاء خيرٌ من صلاة يقل فيها، فأفضل الأعمال وأكملها في ليالي العشر: صلاة فيها قراءة متدبرة ودعاء خاشع.

أخي! تذكَّر:

إن فاتك زمن العطاء وضاعت منك فرص الثراء، فمدُّ اليد للسؤال بعد ذلك حيلة الحمقى.

تقديم طلبات العفو

عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر ما أقول؟ قال: "**قولي: اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعفُ عني**". (صحيح). والعفُـو اسـم من أسمـاء الله الحسنى ومعناه: المتجاوز عن سيئات عباده، الماحي لآثارها وإن عظمت.

وفي الحديث إشارة إلى أن شدة حياء العبد من ربه توجب عليه سؤال العفو لا الرضا، إذ الرضا لا يكون إلا للمتطهّرين من الذنوب، وأما من تلطّخ بالمعاصي فلا يليق به إلا سؤال العفو.

لكن لماذا سؤال العفو حتى بعد اجتهاد أيام العشر؟!

قال ابن رجب الحنبلي: "إنما أمر بسؤال العفو في ليلة القدر بعد الاجتهاد في الأعمال فيها وفي ليالي العشر، لأن العارفين يجتهدون في الأعمال ثم لا يرون لأنفسهم عملاً صالحًا ولا حالاً ولا مقالاً، فيرجعون إلى سؤال العفو كحال المُذنب المُقصر"، ولذا يقول يحيى بن معاذ: ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من الله العفو.

يا ربِّ عبـدك قد أتاك — وقـد أسـاء وقـد هفـا
يكـفيـه منـك حيـاؤه — مـن سوءِ مـا قـد أسلفا
وقد استجار بـذيل عفـ — ـوك من عقابك مُـذ جفا
ربِ اعفُ عنه وعـافـهِ — فـلأنت أولـى مـن عفـا

دعاء العفو أنجى

كان شيخ الإسلام أبوعثمان سعيد بن إسماعيل الحيري كثيرًا ما يقول في مجلسه وفي غير مجلسه، وفي رمضان وفي غير رمضان:

"عفوك يا عفُوُّ عفوك، في المحيا عفوك، وفي الممات عفوك، وفي القبور عفوك، وعند النشور عفوك، وعند تطاير الصحف عفوك، وعند ممر الصراط عفوك، وعند الميزان عفوك، وفي جميع الأحوال عفوك يا عَفُوُّ عفوك".

أحيا لأنه يحيى

كان يحيى بن معاذ يقول في مناجاته: إلهي ما أكرمك .. إن كانت الطاعات فأنت اليوم تبذلها وغدا تقبلها، وإن كانت الذنوب فأنت اليوم تسترها وغدا تغفرها، فنحن من الطاعات بين عطيتك وقبولك، ومن الذنوب بين سترك ومغفرتك.

وكان يقول: لقد رجوتُ ممن ألبسني بين الأحياء ثوب عافيته أن لا يعذبني بعد الممات وقد عرفت جود رأفته.

ويقول: كيف أمتنع بالذنب من الدعاء ولا أراك تمتنع بالذنب من العطاء؟!

ويقول: إني لأرجو أن يكون توحيدٌ لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر: لا يعجز عن محو ما بعده من ذنب.

ويقول: إن إبليس لك عدو وهو لنا عدو، ولا تغيظه بشيء هو أنكى له من عفوك عنا، فاعف عنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

لا شيء أعظمُ من ذنبي سوى طمعي
في حسن عفوك عن جُرمي وعن زللي
إن كنتُ أسرفتُ حينا فاقبل توبتي كرمًا
وابدل بذنبي ثواب الخائف الوجل

نقطة التحول

ليلة القدر ليلة تتمخّض عن ولادة جديدة لكل مسلم على وجه الأرض، فلا بد إذن أن تكون نقطة تحول في حياته لا مجرد لحظة عابرة، أو ليلة لها طقوس معيّنة من اجتماع الناس في المساجد وحضورهم لختمة التراويح، ثم لا يلبثون أن ينفضوا لتجد المسجد في الليلة التي تليها ساحة جرداء، يئن من الجفاء وقلة الوفاء ممن سبق وأن أغدق عليهم العطاء.

أغلى من ليلة القدر!!

قال ﷺ : "موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود". (صحيح)

ومن فقه الرجل اليوم وهو يتعبّد في ليلة القدر أن يعلم مقياس تفاضل العبادات وتمايز القربات، فيقرأ هذا الحديث ثم يشعر بازدراء نفسه أنها ليست في صفوف المجاهدين اليوم ولا تلبس عدّة الحرب!! ثم يتبع هذا الازدراء بعمل ينوي نية لا يعلم صدقها إلا الله أنه سيبدأ المسير فور سماع النفير، ويقدّم دليل صدقه وشهادة إخلاصه وهو أن تسيطر على أحلامه منذ اليوم تفاصيل الموتة المطهّرة والمصرع الرائع المسمّى في عرفنا: شهادة.

ولعل أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه سمع هذا الحديث، فحرص على أن يخرج مجاهدًا حتى بعد أن جاوز التسعين من عمره، لينال شرف الجهاد هناك عند أسوار القسطنطينية، وندع المجال للسان فصيح يقص علينا الخبر، وليس أفصح من لسان علي القرني يقول:

جيش معاوية يقف على أسوار القسطنطينية وبين أفراد الجيش أبو أيوب الأنصاري وقد حلّ به مرض، فأتاه يزيد يعوده وقال: ما حاجتك أبا أيوب؟ قال: ادفني عند أسوار القسطنطينية، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: "**يدفن عند أسوار القسطنطينية رجل صالح**"، وإني لأرجو الله أن أكون أنا هو.

ويأمر يزيد بتكفينه والقتال دائر، فيحمل على السرير على أعناق الجنود ويدفن حيث أراد عند الأسوار تحت سنابك الخيل، وينظر قيصرهم إلى سرير يحمل تحت ظلال السيوف، فيرسل رسولا إلى يزيد بن معاوية: ما هذا الذي أرى؟! قال يزيد: هذا صاحب رسول الله ﷺ، وقد سألنا أن نقدّمه في بلادك، ونحن والله الذي لا إله إلا هو منفّذون وصيته أو نهلك جميعًا ونلحق بالله. قال: عجبًا! أين دهاؤك وأين دهاء أبيك الذي ينسب له، يرسلك أبوك فتأتي بصاحب نبيك وتدفنه في بلادنا حتى إذا ما وليت أخرجناه للكلاب!! فردّ يزيد في عزة وكرامة: إنك كافر بالذي أكرمتُ هذا له، وإني والله ما أردت إيداعه بلادكم حتى أودع كلامي آذانكم: والله الذي لا إله إلا هو .. من أكرمتُ صاحب رسول الله ﷺ له .. لئن بلغني أنه نُبش قبره أو مُثّل به لا تركت

بأرض الإسلام نصرانيًا إلا قتلته ولا كنيسة إلا هدمتُها.

فقال القيصر عندها: لله أنت! أبوك كان أعلم بك، فوحق المسيح لأحرسنه بيدي إن لم أجد من يحرسه!!

جعل الخطام بأنف كل مخالف   حتى استقام له الذي لم يُخطمُ

نساء يسبقن أزواجهن!!

وأنت يا أختاه .. لا تظني نفسك بعيدة عن هذا الميدان، معذورة بالقعود عن القتال، فأين قلبك الحي إذن؟! أين عزمك الفتي تجاه ما يحدث لذراري المسلمين؟! ألا تجاهدين عدونا ولو بالنية الصادقة؟! ألا تريدين أن تكوني ممن وصفهم ابن الجوزي بقوله: "ولله أقوام ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها، فهم يبالغون في كل علم، ويجتهدون في كل عمل، ويثابرون على كل فضيلة، فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائبة وهم لها سابقون".

وما تكون هذه النيات اليوم إن لم تكن الغزو والشهادة!! ألا يسعفك عزمك ويدفعك إيمانك فتحدثك نفسك بالاقتداء بامرأة من سلفنا المبارك ألا وهي زوجة حبيب بن مسلمة الفهري، ألا فاسمعي خبرها لتذهلي وتطربي ثم من بعد ذلك تهتدي وتقتدي:

أمّر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه حبيب بن مسلمة الفهري على جيش من المسلمين لتأديب الروم، وكانوا قد تحرشوا بالمسلمين، وكانت زوجة حبيب ضمن جنود هذا الجيش، وقبل أن تبدأ المعركة أخذ القائد يتفقد جيشه، وإذا بزوجته تسأله: أين ألقاك إذا حمي الوطيس وماجت الصفوف؟!

فأجابها قائلاً: تجدينني في خيمة قائد الروم أو في الجنة!! وحمي القتال وطارت الرؤوس وسالت الدماء وقاتل الزوج ومن معه قتال الأبطال، ونصرهم الله على الروم، وعندها أسرع حبيب إلى خيمة قائد الروم ينتظر زوجته، وعندما وصل إلى باب الخيمة وجد عجبًا: وجد زوجته قد سبقته ودخلت خيمة قائد الروم قبله!!

أنت وشـــاة الراعـــي

قال الحسن البصري:

لا تكن شاة الراعي أعقل منك .. تزجرها الصيحة وتطردها الإشارة.

وأنت كم زجرتك آيات الله .. من النار تُخوّفك فلا تخاف!! وإلى الجنة تدعوك وكأنّ المُخاطَب غيرك!! ومن الله تُحذّرك فتتعرض لغضبه!!

يا أخي! الغنم - وهي التي لا عقل لها - تحذر من ذئب يفترسها فينهي حياتها، أما علمت يا معدوداً في أولي الألباب أن الشيطان هو ذئب الإنسان؟! أما تخشى أن يفترس الشيطان إيمانك وينهش قلبك فتدخل النار مع الداخلين؟!

أخي! الغنم تطيع راعيها لعلمها أنه يقودها إلى مرعى خصيب أو يزجرها عن واد سحيق، وأنت!! ألا تطيع ربك وهو إلى مراعي الجنة يدعوك وعن أوديـة النار يزجرك، ومن أجـل ذلك أرسل رسله إليك تترا، فإذا نسيت ذكّرتك آياته التي عليـك تُتلى، وإذا أعرضت رغّبك في الجنة وشوّقك لعلك ترضى!!

أخي! أتبيع الذهب بالخشب وتزعم أنك عاقل؟! أتعبد أعدى أعدائك بمحاربة أقرب أوليائك ثم تدّعي الفهم؟! أتترك جنة عرضها السماوات والأرض لأجل جيفة وتعدّ نفسك من الأذكياء؟! ويحك! الدنيا تهين من أكرمت ثم تحبها!! والأرض تأكل من أطعمت ثم تركن إليها!! أتمر عليك خير أيام الدنيا وأنت في الهوى قد شُدّ عليك الوثاق؟! والله لن يلتفت إليك أحد حين تعض يديك من الحسرة يوم التلاق!!

أخي! الراحة والجنة ضرتان فاختر إحدى الضرتين، الرجولة همة لا صورة فكن رجلا، مراكب الأبرار سبقتك إلى جوار المختار، وأنت واقف على الساحل محتار؟

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾

ويحك ألا تغار!!

أخي! المهر اليوم يسير، يكفيك فيه وقفة تتزود خلالها، ثم نهضة تنطلق بعدها، وسرعان ما تصل لتجد الأفراح تنتظرك والنعيم يستقبلك والحور تستبطئك والكل مشتاق إلى خدمتك!!

الحديث لك يا معرض .. أنت المراد يا غافل .. أخبرني .. ألك عمر غير هذا العمر؟! أتملك غير هذه الأيام؟! والله لا حيلة لوعظي طالما أغلقت في وجهي الباب، ولا عذر لك اليوم لأنك وحدك صاحب القرار، ومصيرك الآن بيدك، وهذا الشهر هو أنسب شهور التوبة، وهذه الأيام أرجى أيام القبول، وأمامك أسهل فرصة لاتخاذ قرار الرجوع، فإن أبيت إلا الإصرار على رفقة السوء لقتل الأوقات، وإبهاج شيطانك بالنوم على الأفلام والشاشات، وتحطيم ما تبقى من فطرتك بالتسكع في المقاهي والطرقات، فحسبي أني أهديتُ لك الهداية على طبق من ذهب، ثم تخيَّرتُ لنشرها أفضل الأوقات، وأنت الوحيد الذي تأبى النجاة!!

منعوك من نيل المودّة والصفا
لما رأوك على الخيانة والجفـا

إن أنت أرسلـت الدموع تندُّمـا
جـادوا عليك تكرُّمـا وتعطُّفـا

حاشـاهمُ أن يظلموك وإنمــا
جعلوا الوفا منهم لأرباب الوفا

من
الطارق